رسوم نجيب فرح

على من تقام صلاة الجناز؟

د. حسين مؤنس

التحرير

هذه الحرب القائمة بين العراق وايران فى ارض الاسلام لن ينتصر فيها هؤلاء أو أولئك . ولكن المهزم فيها فى النهاية هو أمة الاسلام والعرب . خلال أربعة عشر قرنا تحارب أصحاب السلطان وضيعوا الارواح والأرض والأموال ولكن امة الإسلام والعروبة هى التى سددت الحساب كله . والضحايا والموتى هم نحن على الجانبين . وكل صلوات الجناز اقيمت فى الحقيقة علينا نحن . افراد امة الاسلام والعرب .

الكتاب الكبار ليسوا عظماء بالمعادلة . ولاهم يصلون إلى هذا المستوى قرا فهمدى . ولاهم يأخذون الكتابة عملية أو مجرد وسيلة للعيش . إنما هم عالما جاذبون حتى عندما يكتبون مايثير الضحك .

إنهم عظماء لأنهم يقولون كلاما عظيما . وهم يعرفون أن الكلام العظيم يبدو كلاما وهو فى الحقيقة قوة تدفع الإنسانية وتبنى الدول والحضارات . لأن هذا الكلام العظيم يكشف حقائق الحياة . ويثير مجاهل النفس الإنسانية . ويكشف الخيوط الدقيقة التى تحول الحياة على هذا التركيب .

ولكى نخرج بالفائدة من كلامهم ينبغى أن نقرأهم فى جد . ونقرأهم وأنت مفتوح العينين والذهن والقلب . فإن الكثير مما يقولون إنما هو أشعة سينية تخترق حجب المادة وتبدد سحب الحياة .

من هؤلاء ايرنست همنجواى . ومن كلماته التى تنفذ إلى صميم الحياة ذلك السؤال الذى جعله عنوانا لروايته الخالدة « لمن تدق الأجراس ؟ » . وقد أجاب عليه فى ثنايا الرواية مرات ومرات .

كتبها بعد أن اشترك فى الحرب الأهلية الأسبانية . وخاض غمار معارك الشيوعيين والوطنيين هناك فى حوض الأبرو فى أسبانيا . وكانت معارك الأبرو أهوالا كالجبال . ولقد خاضها الجانبان بكل مافى كيان الإنسان من وحشية . والإنسان هو أبشع وحوش هذه الأرض وأعتاها وأشدها ضراوة . وقد جرت فيها الدماء أنهارا بالفعل .

والعبارة وردت أول مرة على لسان بطل الرواية روبرت جوردان (والمفروض أنه هو همنجواى نفسه) قالها ذات مساء غريق . والشيوعيون – وكان يحارب فى صفوفهم لأنه كان يحسب أنهم يحاهدون لهم قضية – مختصمون فى غمار الجبال بعد يوم كله ضرب وقتل ودماء . كان يحدث صديقه أنسلمو وهو يأكل قطعة من خبز جاف بينما كانت بيلار – وهى الشخصية النسائية الرئيسية فى الرواية – تطهو شيئا للعشاء . وترامت إليه من بعيد أصوات أجراس الكنائس . كانت تقرع برنين جنائزى بينما كان الفاشيون يتلون الصلوات على أرواح أموات ليست لهم أسماء . إنهم بعض أولئك النساء الجاهيل الذين يموتون وهم يحسبون أنهم يصنعون التاريخ .

إنهم مئات . ماتوا فى تلك الحرب الأهلية ومازال أمثالهم يموتون فى كل ركن من أركان الأرض . يموتون تحت رايات ذات ألوان . والألوان فى معظم الأحيان غير ذات معنى . إن الوانها تشبه لون « الفوليا » الحمراء . التى يضعها مقاتل الثيران أمام عين الثور الجريح المهدود لكى يجرى ويضربها بقرنيه فيجد أنه ضرب الهواء ولايزال يضرب الهواء بقرنيه حتى يسقط سيف « الثوريرو » بين كتفيه .

وأحس الرجل أن هذه الأجراس لاتدق فقط أو لذلك . إنها تدق للبشر جميعا . فإننا أبناء آدم وحواء أمة واحدة . وعندما يموت واحد منا يموت بعض كيانا . فهذه الأجراس التى ترسل رنينها الحزين إنما هى تنعاه إلى نفسه .

ونحن

ونحن لاتدق الأجراس عندما يموت منا أحد .

نحن نقيم صلاة الجناز . والجناز فى اللغة هو الميت نفسه . وصلاة الجناز هى طلب الرحمة له . الحقيقة أننا نطلب الرحمة لأنفسنا عندما نكبر تكبيرات صلاة الجناز . لأن هذا الجناز هو نحن جميعا . ألم يقل الله سبحانه فى مطلع سورة النساء .

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)

وفى سورة لقمان (آية ٢٨) :

(ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة)

وفى سورة المائدة (آية ٣٢) (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا)

فنحن جميعا نفس واحدة . خلق تفاريق . وخلقت تفاريق . ولكنها فى البداية والنهاية نفس واحدة . وهذا الإنسان الذى نراه جبارا يسار به إلى اللحد إنما هو أنت . عرفته أو لم تعرفه . حزنت لموته أو لم تحزن . وقد يطرب بعضنا لموت إنسان . ولكنه فى غمرة الطرب ينعى نفسه لنفسه دون أن يدرى .

ونحن العرب والمسلمين بالذات لاينبغى أن نغفل عن هذه الحقيقة قط . لأن الله سبحانه قال لنا فى سورة الأنعام (آية ٩٨) :

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع)

والمستقر – بفتح القاف – هو الإنسان الحى . والمستودع هو المستودع باطن الأرض . أى الميت . وكلنا أحياء وأمواتا نفس واحدة .

●●●

أفكار

جرى بى الخاطر وأنا أسمع أخبار القتال بين إيران والعراق . ويحكى الدهشى وأنا أستمع إلى مذيع العراق وهو يقول فى نشوة الظافر : حطمنا كذا طائرة إيرانية . وقلنا – لا أدرى – كم إيرانيا . وأعرفنا كذا سفينة بمن فيها . وأستمع إلى الآخر من إيران يقول . قلنا وأحرقنا ومسحنا العراق من على الخريطة .

وأقول : أيها الساكتين تقطعون أنفسكم بأيديكم وأنتم لاتدرون . فهؤلاء القتلى على الجانبين هم أنتم . وهم أنا وأنت . لأن هذه الأمة أمة واحدة . وما أهلكها على طول القرون إلا قتل بعضها بعضا . وعلى طول تاريخنا لم يقتل الأعداء منا عشر مافقناه نحن بأيدينا . إن العدو لايفعل فى كثير من الأحيان إلا أن يناولنا السلاح ونحن نتولى قتل أنفسنا بحسابه .

أليس هذا بعض الذى نراه اليوم ؟

وماهذا الذى نسمعه من أن العراق يحارب إيران . وإيران تحارب العراق . أليست هذه كلها أرضنا وتلك كلها أمتنا ؟ فكيف والله يقول أهل العراق إنهم يغزون الأهواز . ويقول أهل إيران إنهم يريدون البصرة ؟

وملك من هذه الأرض كلها ؟ أهى ملك أصحاب الأمر فى طهران أو بغداد أم هى أرض المسلمين جميعا ؟ وبأى حق يتصرفون هذا التصرف الأحمق فى أموال المسلمين وأرض المسلمين ؟

وهذه الشاحنات البترولية التى تحطمها طائراتهم من الجانبين . هل هى ملك هذا أو ذاك أو هى ملك أمة الإسلام ؟ والذى يضيع اليوم من سيعوضه ؟ لن تعوضه إلا أمة العرب والإسلام . وسيمضى أصحاب الأمر هناك إلى ربهم يوما ما ليحاسبهم الحساب العسير . ويبقى أمة العرب والإسلام بالخسائر والآلام .

وهذا

البترول الذى هو نعمة كبرى على العرب والمسلمين جميعا أصبح فى أيدينا نقمة بسبب تصرف نفر قليل من الناس .

لم يكن هناك عرق واحد يعرف أن هناك تحت الأرض الإسلامية هذا الخير كله . وفى أيام العباسيين كانت الدولة إذا أرادت أن تهين إنسانا أقامته . صاحب النفط . لأن النفط كان يسيل على الأرض فى بعض النواحى فى العراق . وكانوا يستخرجون منه القار ولازيادة . فكان صاحب النفط – الذى هو وزير البترول اليوم – هو صاحب القار أو الزفت .

هذا الزفت لدين أنه أكبر ثروة وهبها الله للعرب والإيرانيين . لقد استخرجه القوم وصفوه وأنشأوا له المصانع والمشآت والأنابيب والسفن . وأغنا من خلقوتا واستعدنا ثروة بلادنا .

فماذا فعل بعضنا بها ؟ لم نكد نستمتع بها زمانا قصيرا حتى بدأ بعضنا يلعب بها ويستخدمها فى تصفية حزازات وعداوة كسب أمجاد وهمية . ثم أشعلوا فيها النار ؟ ولاهم لطائرات العراق إلا تخريب بترول إيران . ولاهم لطائرات إيران إلا تخريب بترول العراق ! فهل فى الدنيا عبث هو أوغل فى الشر من هذا العبث .

●●●

ثم

استمع إلى الأخبار

إن إيران تقذف بغداد بالقنابل . ومثل ذلك تفعل إيران بمدن أخرى فى العراق . وغريب من الأمر أن كلا الجانبين يضرب بغير حساب . إن كل هدفه تحطيم الآخر والقضاء عليه دون رحمة أو هوادة .

هل تذكر كيف كان تصرف الأعداء الأوربيين بعضهم مع بعض أثناء الحرب العالمية الثانية ؟ لقد قذف الألمان لندن بالقنابل ولكنهم لم يهدموا كنيسة سان بول ولا المتحف البريطانى ولا أى شئ ذا قيمة قومية خالدة . وعندما حطم الألمان كانتربرى . وهى مدينة إنجليزية صناعية تنظم الانجليز بتحطيم دسلدورف . ولكنهم لم يخربوا متحف برلين ولا هم هدموا كاتدرائية كولونيا . واحتل الألمان باريس وحكموها . فلم يهدموا قصرا ولا متحفا . ولاأسوا اللوفر بأذى . ولاهم حدشوا قوس النصر أوحدائق فرساى .

لأن الحرب أيضا فيها حضارة وجاهلية . ونحن الذين آتانا الله الخير كله وقال لنا فى كتابه إننا نفس واحدة . لا نريد أن نتذكر أننا نفس واحدة . إنما هى نفس تمزقها تحطمها . يقتل بعضها بعضا . لأن بعضنا فيما يبدو . ما زالوا أعرابا أسلموا ولم يدخل الإيمان قلوبهم . ولو دخلها لعرفوا أن مايصنعه بعضنا اليوم بوطننا العربى والإسلامى جريمة . جريمة بدأت ولانعرف أحد كيف تنتهى .

هتلر

هيملر

هيملر

لأن العراق لايعرف ماذا يقول عندما يزعم أنه سيغزو كل إيران . وإيران بالنسبة لخلد العراق إنما هى روسيا بالنسبة لحبشى مايلبون وهتلر . والأرض فى أحيان كثيرة جدا بيد الرجال . والمسافة بين البصرة وهرمز بالسير ألفا كيلو متر كلها صحارى مهلكة ومغارات معطشة . فكم ألف جندى من العراقيين المساكين سيهلك فى الطريق الوحش إلى هرمز . وكم ألفا سيهلك فى الطريق إلى الصدان وأصفهان وطهران ؟ . . . ومن الآن تستطيع أن تقول إنها لن تصل لو أنها أرادت ذلك . وكل نقطة ما من الطريق سيجد العراقيون أنفسهم فى ستالنجراد . ويهلك الألوف بعد الألوف . ويجرى سيل الدم البرئ من بغداد إلى أصفهان كما سالت أنهار الدم من برلين إلى ستالنجراد ؟

وماهذا الذى يقولونه فى طهران من محو العراق من الخريطة ؟ هل هذا لعب أو جنون أو اجرام ؟ ان هذا كله أوهام . فان العراق أمة حافلة بالأسود . وعندما يتقدم الإيرانيون فى أرض العراق سيجدون أنهم يتساقطون من موت لموت . وسيفنى ألوف الإيرانيين فى الطريق . ونفس نهر الدم المسلم سيجرى من طهران إلى حيث يشاء الجنون .

ثم إن العراق ليس العراق فحسب . إنه قطعة من أرض العرب . وكل مواطن عربى سيقف للدفاع عن العراق . وليس بين عربى وعربى خلاف حينما يتعلق بسلامة الوطن العربى . « بلاد العرب أوطانى » ليست أنشودة . إنما هى قدر ومصير . وبغداد تبدأ عند دجلة ولكنها تمتد حتى القاهرة . والإيرانيون فيما يتصل بالعرب عميان . طوال تاريخهم عميان فيما يتصل بالعرب . والخصومة حول « الخليج الفارسى » . . . و « الخليج العربى » ليست نزاعا حول نقط . إنها نزاع بين أمتين لم تحاول إحداهما أن تفهم الأخرى قط . ولو فهم الإيرانيون العرب لتغير وجه التاريخ . ولتاريخنا نحن على الأقل .

●●●

وإنى أن يفهم الإيرانيون العرب ستظل الحروب قائمة بين الجانبين . وهى حروب عقيم لاينتج عنها إلا الدمار . وستنتهى يوما ما . كما انتهت كل الحروب التى قامت على وجه الأرض . سيخرج الجانبان منهزمين .

وأيا

ماكان الأمر فالسؤال قائما بالنسبة لأمة الإسلام التى هى نفس واحدة : هل من نظام صلاة اختار ؟ . . وبيق الجواب بعد ذلك واحدا وهو : علينا جميعا . . على العرب والإيرانيين جميعا . .

وهؤلاء المساكين الذين نقرأ أن الحرب قطعتهم فى الصراع حول الأهواز أو نصر شيرين أو البصرة أو بغداد . إنما هم أنت وأنا . والشاكية التى يتطلق صوتها فى ظلام الليل هناك تبكى وحيدها . . هى فى الحقيقة أمى وأمك تبكى وتبكيك .

لأن القتيل هو أخى او أبى أو أخوك أو ابنك .

والنار التى تأكل البترول هناك تأكل أموالنا نحن لا أموالهم فحسب .

سبحان من وهبهم كنزا لايوصف فضيعوه بغباء لايوصف .

□